

الفصل الثالث

الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية

أ- في مصر: حركة علي بك الكبير .

ب- في بلاد الشام :

١- حركة فخر الدين المعنى الثاني.

٢- حركة ظاهر العمر .

٣- حركة أحمد باشا الجزائر.

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية في منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة في الفترة التي قامت فيها حركة علي بك الكبير يتبين لنا مدى الضعف الذي لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التي انهالت عليها من الدول الأوروبية وبخاصة الروسية، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة علي بك الكبير والتي من أهمها حركة ظاهر العمر في فلسطين، وحركة الأكراد في شمال العراق والشام، والثورات في اليوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبيغان^(١)، والتزاع بين الأشراف على إمارة مكة. ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك في مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثماني، وأصبح لزعيهم الذي كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة في البلاد، وفي النهاية استغل أدهم وهو علي بك الكبير الفرصة وتمكن من الافراد بالسلطة في مصر في عام ١٧٦٦ .

١- حركة علي بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة علي بك الكبير بالدراسة لا بد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر.

الاسم الحقيقي لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد في عام ١٧٢٨ في بلدة أبازة من أعمال القوقاز العثماني، وكان والده واحد من قساوسة الكنيسة اليونانية، ويرغب في أن يكون ابنه مثله قسيسا، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن في أثناء رحلة صيد كان يقوم بها في إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك في مصر^(٢) وقد اعتنق يوسف الإسلام، وتسمى باسم علي، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة في ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتسب لقب "جن علي" ولما بلغ الثامنة عشرة اعتقه استاذه وولاه سنجقا، ثم زادت شهرته بعد نجاحه في الضرب على أيدي البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا، فقربه سيده وجعله كاشفا^(٣) وواصل علي بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد، وخلال ذلك أخذ علي بك في التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفي الوقت نفسه نشط في وضع أتباعه في المناصب

(١) محمد رفعت رمضان: علي بك الكبير، القاهرة، دار الكر العربي ١٩٥٠ ص ٥.

(٢) محمد رفعت رمضان: المرجع السابق ص ١٨-١٩.

(٣) محمد فؤاد شكرى: الحلة الأرمنية وظهور محمد علي، القاهرة، دار المعارف ص ١٦.

الهامة ^(١) ، كما نجح فى تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريطهم فى المشاركة فى الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير فى تركيز السلطتين الحربية والادارية فى يده وبخاصة بعد نجاحه فى كسر شوكة العربان فى الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهايه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء ^(٢) وانتهاز على بك فرصة اتشغال الدولة العثمانية بحروبها فى روسيا، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر ^(٣) وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية، وفى عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا فى شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول أن على بك الكبير كان يرغب فى الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة فى ظل السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله " اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك، فلما انتقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البلبه والصلاح فقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال: نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه، فبطحوه وضربوه بالعصى، فقام بعد ذلك متألما من الضرب، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غربيا وسيعود كما بدأ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثاتى يوم داراهم وكسوة واستسمحه " ^(٤) .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليها المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم بإقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الإدارة، كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة. فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إتهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية، واضعاف قدرتها العسكرية ضد روسيا ^(٥) ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك، وافتتاته على حقوق العثمانيين فان اتشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك ^(٦) ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

(١) الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج١، القاهرة، المطبعة العامرة الشرفية ص٣٨٤.

(٢) ميخائيل شاروويم: الكفى فى تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١.

(٣) الجبرتى: المصدر السابق ج١ ص٣٨٤

(٤) الجبرتى: المصدر السابق ج٢، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف"

(٥) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٩.

(٦) محمد رفعت رمضان: المرجع السابق ص٦٤.

ونظرا لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الاحمر وشواطئ الهند^(١) ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين.

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة محمد بك ابو الذهب^(٢) إلى مكة، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩. وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين^(٣) فزاد ذلك من شهرته، وقوة شوكته. وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسيعية، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

١- اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر.

٢- انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا، وعدم تمكنها من إرسال النجدة العاجلة إلى بلاد الشام.

٣- علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثماني، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .

٤- تدمير أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام .

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته، وخلال ذلك لقي أبو الذهب كل معونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة اخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق^(٤) ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهنات، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزيارات، غير ان هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق، كما نادى أهالى الشام بالأمان^(٥) وكر عاتدا إلى مصر، وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

(١) Irwin , Eyies ; Series of Adventures in the Course of Avoyage Up the Red Sea Dublin ١٧٨٠ Vol.

P. ١٥٩.

(٢) يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة، صار يفرق البقاشيش ذهباً وفى حال ركوبه ومروره جعل يثر الذهب على الفقراء" الجبرتي: المصدر السابق ج١ ص٤٢٢.

(٣) إبراهيم الطيب: مصباح السارى ونزهة القارى ص٢٣.

(٤) شكرى : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٥) الجبرتي: المصدر السابق ج١ ص ٣٨٥ .

١- اجتماع القائد العثماني عثمان باشا بأبي الذهب في خيمته واقفاهه بأن ما قام به ضد السلطان العثماني يخالف الشرف والامانة، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢- إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبي الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر .

٣- أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثماني بالعفو عنه، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير .

٤- أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع روسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته في بلاد الشام .

٥- أن العثمانيين نجحوا في إثارة النزعة الدينية عند أبي الذهب، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنما يعصى الله ورسوله، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة روسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبي الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبي الذهب، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر في عكا، ومشاركته في مواجهة العثمانيين في بلاد الشام .

وفي بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر، فجمع حوالى خمسة آلاف جندي تقدم بهم لملاقاة أبي الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا^(١). وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر، واتفق الطريق امامهم إلى القاهرة، ولكن أبا الذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والاحاد، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاختضاع البلاد حتى يقضى على الدين الإسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبي الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا، وبقي فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته"^(٢) .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية وعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة"^(٣) واعترف بسيادتهم على مصر، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربه لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبي الذهب فمنهم من ذهب إلى انه مات بداء السكتة القلبية، ومنهم من قال انه مات بمرض الحمى، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه

(١) شكرى: المرجع السابق ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) الجبرتى المرجع السابق ج ١ ص ٣٨٥ . وانظر أيضا فؤاد شكرى: المرجع السابق ص ٣٠ .

(٣) الجبرتى: المصدر السابق ج ١ ص ٤٢٣ .

هدم ديراً للرهبان وقتل من فيه ^(١) . وعلى كل حال فبعد وفاة أبي الذهب وقعت البلاد في حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك في التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وإبراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما، وفي عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءاً فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين ^(٢)

ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب في مصر رهينة تصرفات مراد بك وإبراهيم بك واخذوا في ابتزاز قناصل الدول الأوروبية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التي يطلبانها، تقدمت الدول الأوروبية بشكواها إلى الباب العالي في عام ١٧٨٦، فارسلت الدولة العثمانية أسطولاً بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور ^(٣) ، والدخول إلى القاهرة في أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة، وظل الحال على هذا المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر في يوليو من عام ١٧٩٨ م .

ثانياً: الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية في بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها في يد العثمانيين في أعقاب معركة مرج دابق عام ١٥١٦ إلى

ثلاث إيالات هي

- ١- حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية.
- ٢- طرابلس وتشمل وسط الشام .
- ٣- دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين واستمر هذا التقسيم سائداً حتى عام ١٦٦٠م إذا استحدثت إيالة جديدة وهي صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صنف حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق ^(٤) وفيما يلي نعرض لحركات فخر الدين المعنى الثاني، وظاهر العمر الزيداني، واحمد باشا الجزائر.

حركة الأمير فخر الدين المعنى الثاني :

قام الأمير فخر الدين المعنى بمحاولة لإقامة دولة مستقلة في لبنان واستطاع أن يفرض سيطرته منذ النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي على القبائل البدوية في البقاع وحران وفلسطين ، وأن يمد نفوذه على مناطق الريف حتى حلب وانطاكية . ولكي يؤكد سلطته على هذه المناطق اتصل ببعض الدول الأوروبية خاصة إيطاليا لمساندته في الانفصال عن الدولة العثمانية ، كما تحالف مع بعض العصابات المحلية داخل لبنان خصوصاً مع الدروز والشهابيين ، واستطاع ادخال الحضارة الغربية إلى بلاده والاتصال بمظاهر المدنية الأوروبية الحديثة ، وفتح أسواق بلاده لتجارة فلورنسا ^(٥) ولما استفحل خطره ، وظهرت أطماعه في الاستيلاء على العديد من بلاد الشام ومنها دمشق أرسلت إليه الدولة العثمانية

^(١) تاريخ الأمير حيدر: نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان، القاهرة، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص ٨٢٤.

^(٢) Charles Roux: L' Angleterre de Suez, et l' Egypte pp. ٢٠-٢١.

^(٣) Ibid: p. ١٩٥.

^(٤) رأفت الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، دار الثقافة ١٩٧٧ ص ١٣٥ .

^(٥) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٥٣.

الجيوش والأساطيل التي تمكنت من الاستيلاء على لبنان مما اضطره إلى الفرار لايطاليا والمكوث هناك حوالي خمس سنوات ثم العودة بعد ذلك إلى لبنان ، وتكوين جيش لمساعدته في الوقوف ضد العثمانيين ، وتلقيب نفسه بلقب أمير لبنان وصيدا والجليل .

وبعد أن تفرغت الدولة العثمانية من مشاكلها وجهت إليه القوات التي تمكنت من القبض عليه وارساله إلى الآستانة أسيرا حيث تم اغتياله هناك في عام ١٦٣٥م ، كما دمرت امارته ونهبت وعاد إليها الحكم العثماني التي كان بمثابة الكابوس المخيف للأهالي خاصة وانهم كانوا قد تنسموا رحيق الحرية في عهد حكومة فخر الدين المعنى.

٢- حركة ظاهر العمر الزيداني :-

بعد ان اختار اهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم في عام ١٧٣٣م ، أخذ في تنظيم اموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم في فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف في وجهه أخفقوا في مساعهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه^(١) ورغبته في التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثماني بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته في التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع علي بك الكبير في مصر .

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا أستأثر ظاهر العمر بحكم عكا في الفترة ما بين ١٧٥٠ - ١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخي نفوذها وتقوية مركزه ، فأخذ يبني القلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التي تدعم نفوذه في هذه المنطقة^(٢) ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع علي بك الكبير في مصر ، أبدى كل منهما استعدادا لتجدة الآخر في حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى علي بك الكبير استعدادا لتجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام ، وأرسل إليه جيشا مكونا من أربعة آلاف جندي لمعاونته .

وعندما أرسل علي بك جيشا بقيادة محمد بك ابى الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية آزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخول دمشق إلا أن خيانة أبو الذهب لسيدة قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت علي بك يفر إلى فلسطين للاستجداد بالشيخ ظاهر العمر في محاولة لاستعادة مركزه في مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات لتجدة فقد اندحرت قواته للمرة الثانية على أيدي أبي الذهب ، فأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثماني المسلح والقضاء على ظاهر العمر في عام ١٧٧٥م وقتل معظم ابنائه وعودة النفوذ العثماني إلى هذه المنطقة ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى أضعاف السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزائر بحركة انفصالية أخرى في محاولة لملء الفراغ السياسي في تلك المنطقة في الفترة ما بين ١٧٧٦ - ١٨٠٤م .

(١) من أبرز الامثلة على ذلك حملة سليمان باشا والى دمشق إلى طبرية في عام ١٧٣٣.

أنظر ميخائيل النمشقي الحورى : تاريخ الشام ١٧٢٠ - ١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سباتو ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٢

ص ٢٤.

(٢) فواد شكرى : المرجع السابق ص ٢١.

٣- حركة أحمد باشا الجزائر (١) ١٧٥٠ - ١٨٠٤ م:

بدأ نجم أحمد باشا الجزائر في الظهور بعدما التحق بخدمة علي بك الكبير في مصر، إلا أنه ما لبث أن فكر في الهرب من مصر خشية بطش سيده، فتكر في زى المغاربة، وتوجه إلى دمشق حيث عمل في خدمة واليها فترة، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمير يوسف الشهابي الذي أعجب بذكائه وقوة عزمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التي كانت مهددة في ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسي (٢)، وقد تمكن الجزائر من السيطرة على زمام الموقف في بيروت لفترة، إلا أن الأسطول الروسي سرعان ما هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول، وهناك استطاع أن يظفر بلقبى الوزارة والباشوية، ويمنصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة في حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة. وبعد أن برزت قدرة الجزائر في السيطرة على زمام الموقف، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر، منحته الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا، فقام بتحسينها، كما عمل على زيادة ممالكيه وأنصاره. وخلال ذلك سعى الجزائر للقضاء على أسرتى آل العظم والشهابيين (٣)، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلي لبلاد الشام.

وبعد أن سمع الجزائر بتحريك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام، بدأ في زيادة استحكاماته في عكا، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين، كما أوجد فيها حاميات عديدة تمتد مساحتها بحرا من الأسطول الإنجليزي بقيادة "سيدنى سميث" مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونايرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزائر على أنه مطمح آمالهم في النصر. ونتيجة لاستبسال الجزائر وقواته في الدفاع عن عكا، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر بونايرت إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزائر وعزز من مكانته أمام الناس، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق في بلاد الشام، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفت مع الأمير بشير الشهابي ضده ولكن الجزائر فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لإعلان ولائه للسلطان، وظلت الأمور على حالها حتى توفي الجزائر في ١٢١٩هـ/أبريل ١٨٠٤م وهو في ذروة قوته وسلطانه.

وعلى أي حال فقد كانت سياسة الدولة العثمانية هي التفرغ أولا للجيهاث الخارجية ضد روسيا في حروب القرم، وضد الصفويين في بلاد فارس، ثم انتهاز الفرص المناسبة للقضاء على التمردات المحلية ضدها بعد ذلك. والسؤال المطروح هو هل كانت هذه الحركات التي قامت ضد الدولة العثمانية معبرة عن آلام الناس وآمالهم أم كان هدفها الحكم والسيطرة الواقع أن هذه الحركات كانت في مجملها فردية، أثارها دوافع ونزعات شخصية أكثر من كونها حركات تعبير عن مشاعر الناس وأحاسيسهم.

(١) اسمه الحقيقي أحمد البوشناقى ، وأطلق عليه لقب الجزائر لشدة وصرامته وأسرته في القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

أنظر الأمير أحمد حيدر الشهابي : لبنان في عهد الشهابيين - تحقيق أسد رستم وفؤاد البستاني ، القسم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص ٩٦ .

(٢) محمد جميل بيهم: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، القاهرة ، مطبعة الباي الخليلي، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠ ص ٥٦.

(٣) للتفاصيل انظر الشهابي: المصدر السابق ص ١٦٠-١٦٥.